

مكتبة مصر والفجالة تقدم
من مجموعة
مكتبة مصر

ثوب الخليفة

إعداد
أمير سعيد السحار

النشر
مكتبة مصر
٣ شارع كائنات - الجيزة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠ - فاكس : ٥٩٠٧٥٩٣

لَوْ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتَ ۚ



الشيخ محمد بن عبد الوهاب

لَمْ تَلْبَثْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ قَامَتْ مِنْ قُورِهَا حِينَمَا جَاءَهَا النَّبَأُ .. وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهَهَا بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَشَجَّلَهَا نَوْعٌ مِنَ الْغَيْطَةِ وَانْتِشِرَاحِ الصَّدْرِ .. لَقَدْ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ كَمَلَةً مِنَ النِّشَاطِ الْغَامِرِ وَالْحَرَكَةِ الْمُتَصِلَةِ الَّتِي لَا تَهْدَأُ ، وَلَا تُسِي عَنْ الْقَفْرِ هُنَا وَهُنَاك ..

إِنَّهُ النَّبَأُ الْحَبِيبُ .. إِنَّهَا مِائَةُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ نَصِيْبُهَا مِنَ الْعَطَاءِ .. إِنَّهَا مَسْرُودُهَا خِزَانَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ اللَّصُوصِ ، أَمْ مَرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ .. سَتَحْفَظُ بِهَا فِي الْمَكَانِ الْحَصِينِ الَّذِي تَرْمُو فِيهِ الْأَمْوَالُ ، وَتَضَاعَفُ مِائَاتِ الْمَرَّاتِ .. سَتُفْقِئُهَا عَلَى عِيَالِ اللَّهِ وَأَحِبَّاهِ ، عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..

لَقَدْ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صَالِمَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَجَاءَ إِلَيْهَا الْمَالُ ، فَاخْذَتْ تُفَرِّقُهُ عَلَى أَهْلِهِ وَأَرْبَابِهِ وَمُسْتَحْقِيهِ .. عَلَى هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ الْكَفَافَ مِنَ الْعَيْشِ ، وَيَظُلُّ أَحَدُهُمْ طَوَالَ يَوْمِهِ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ جِئَةً وَذُهُوبًا يَسْكُحُ هُنَا وَهَنَاكَ دُونَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى مَا يَكْفِيهِ وَأَوْلَادَهُ ، وَيَقِيهِمْ شَرُّ الْحَاجَةِ ، وَأَلَمُ الضَّنَى ، وَمَذَلَّةُ السُّؤَالِ .. !

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَجِبُ أَنْ يَنْظَرَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ ، فَيُعْطِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ يَخْرُاجُهُ لِأَوْلَئِكَ الْمُتَحَاجِّينَ الْيَوْمَاءِ ... إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ لَوْ فَعَلَ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ ، وَأَمَرَهُ بِإِخْرَاجِهِ ، لَمَا وَجِدَ قَمٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَفْوَاهِ الْغُرُومَةِ ، وَلَا بَطْنٍ مِنْ تِلْكَ الْبَطُونِ الْجَائِعَةِ .. !!

ويل للفقير من الغنى الصلْد القلب ، القاسى الطباع ، الذى لا يجيْد فى قلبه ذرّة حنان
أو عطف على عيال الله وأحبابه ، فيظلّ هذا سائراً لاها ، لا يحاول اشْرِضاء قلب من هذه
القلوب ، أو إشباع بطن من هذه البطون ، بينما هو يعلأ بطنه إلى حدّ الشُّجُون



وشغلت عائشة بهؤلاء الفقراء عن نفسها ، ونسيت ذلك الإجهاد المميت ،
 وأنها خاوية البطن تبيت أكثر الليالي مع رسول الله ﷺ على الطوى ، لا تشبع
 من طعام أو شراب ، ولو شاءت لشبع ، وملأت البطن وباتت فتحة ..
 وكانت تشعر بلذة ليس وراءها لذة ، وهي ترى هؤلاء المساكين
 يتناولون بأيديهم نصيبهم من المال ، وإن عواظهم النبيلة التي تفيض بشكرها
 على ما تهديه لهم وتعطيه إياهم لتقع في نفسها موقعا لا يعادله شيء مهما كان
 الأمر .. هؤلاء رجال .. شيوخ أضفقتهم الحاجة ، وعظمهم الفقر بناله ،
 وكهول أضعفتهم الحاجة والمرض ، وأذلهم السؤال والطلب ... هؤلاء نسوة
 مرقعات ، فقدن العائل والنصير ، لا يجدن صدرا يعطف عليهن ولا قلبا





يُشْفِقُ بِهِنَّ ، وَلَا فَوَإِذَا يَحْوُ عَلَيْهِنَّ .. وَيجِدْنَ فِي هَذِهِ الْمَتَدَةِ إِلَيْهِنَّ
بِالْإِحْسَانِ وَالصَّدَقَةِ عَطْفًا وَرَحْمَةً وَتُبْلًا يَعِجْزُونَ عَنْ تَقْدِيرِهِ وَشُكْرِهِ ، وَلَا يَجِدْنَ
سِوَى شَيْءٍ وَاحِدٍ يَعْبُرُونَ بِهِ عَنْ بَعْضِ مَا يَجِدْنَ ، ذَلِكَ هُوَ الدَّمُوعُ .. إِنَّهَا
لَتَفِيضُ حِينَئِذٍ فَيُضَانَا هُوَ دَلِيلُ التَّبَجُّلِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْاحْوَامِ .. !

وإِنَّ الدَّمُوعَ مِنْ هَذِهِ الْعَيُونِ الْمَقْرُوحَةِ ، لَتَبْعُثُ فِي الْقَلْبِ لَوْعَةً وَأَسَى ، وَرِثَاءً
وَحَنَانًا .. وَمَا أَجَلَ يَدِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَمْتَدُّ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ ، تَأْسُو الْجِرَاحَ وَتَوَاسَى
الْمُحْتَاجِ .. إِنَّهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ يَنْشُرُ عَلَى الْعِبَادِ الْوَنَاءَ مِنْ قِيَوضِ اللَّهِ وَنَعْمَائِهِ
الزَّائِرَةِ ، وَمَا أَجْمَلَ الْعَوْنَ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ بَيْنَ الرُّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ
الَّذِي تَضَافَرَتْ قُوَى الشَّرِّ فِيهِ لَتُخْذَلِ الْحَقُّ وَتَرْفَعُ لُؤَاءُ الْبَاطِلِ ، فَأَيُّ اللَّهِ إِلَّا
أَنْ يَرْفَعَ كَلِمَتَهُ ، وَيُعْطِيَ دِينَهُ ، وَيَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ الْفَنَةِ الْمُتَوَاضِعَةِ الْمُتَعَاوِنَةِ فِي الْحَقِّ
- بِهِ نَحْيَا ، وَفِي سَبِيلِهِ نَمُوتُ - أُمَّةً تَبْعُثُ الْحَيَاةَ فِي مَوَاتِ الْعَالَمِ الَّذِي نَسَى
الضَّعِيفَ وَجَحَدَ حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمَسْكِينِ ، فَارْتَفَعَتِ الْمَادِّيَّةُ وَأَصْبَحَتْ هَا مَنَزَلَةً
مُحْتَرَمَةً ، وَمَكَانَةً مَعْرُوفَةً .. ثُمَّ عَاشَ الْفَقِيرُ وَالضَّعِيفُ فِي زَوَايَا النَّسْيَانِ عَلَى
فُتَاتِ الْمَوَائِدِ ، يَحْيَا حَيَاةً تَابَاهَا الْبُهَائِمُ الرُّنْعَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَرْفَعَ
صَوْتَهُ أَوْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ .. !!

فَلْيَنْظُرِ الْعَالَمُ الْمَوْبُوءُ الْآنَ .. فَلْيَنْظُرِ الْعَالَمُ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ الْخَلَاصَ مِمَّا
فِيهِ - فَلْيَنْظُرِ إِلَى عَائِشَةِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ صَائِمَةٌ تُفَرِّقُ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ وَهِيَ فِي
أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى دِرْهَمٍ وَاحِدٍ مِنْهَا ، تُفَرِّقُهَا كُلِّهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُبْقِي مِنْهَا شَيْئًا
لِنَفْسِهَا .. !!



يا لله ! .. لقد وقفت خادِمُ عائشة أم المؤمنين تعجبُ هذا الإيمانِ وذلك الإيثار ، إنها لم تجد لها مثيلاً أبداً بين النساء .. لقد نسيت سيِّدتها عائشة نفسها .. إنها صائِمةٌ وهي كذلك صائِمةٌ مثلها ، وإنَّ الجوعَ يكادُ يفتِكُ بها فتكاً ذريعاً ، ولكن أنى لعائشة أن تأبه بالجوعِ يفتيها ويُرهِقُ أعصابها ، ما دامت تُشبعُ البطونَ الجائعةَ ، وتكسو الأبدانَ العاريةَ . وتُفرِّحُ القلوبَ الحزينةَ ، وتأسو الألفئدةَ الجريحة .. ١١

إلها ورَّعت مائة ألفِ درهمٍ في يوم .. وها هي ذى الشمسِ كادت تغربُ ، وها هي ذى سيِّدتها قد نَقَضَتْ يَدَها مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ الَّذِي لَا تَجِدُ فِيهِ لَذَّةً أَوْ مُنْعَةً كَمَا يَجِدُ النَّاسُ .. سواءٌ لديها أجاء أم ذهب - هو فقط طريقٌ إلى الآخرة ، يُدْخِرُ هُنَاكَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ... ولكن ما معنى هذا ؟ .. أمعناه أن تبقى جائعةً لا تجدُ ما تُفطِّرُ به ؟ .. لقد وجدتُ في نفسها الشَّجَاعَةَ الكافيةَ لتُصارِحَ سيِّدتها بهذا الأمر ، فربَّما احتاطت سيِّدتها وعملت ما يضمنُ لهما الإفطار .

قالت الخادِمُ في أدبٍ ولُطْفٍ :

- ما استطعتُ فيما فرَّقْتَ اليومَ أن تُشْرِىَ لنا بديرهمَ لحمًا نُفطِّرُ عليه .
وكأنما وقَّعت هذه العبارةَ مِنَ السَّيِّدَةِ عائِشةَ مَوْقِعاً مُؤَثِّراً ، جعلها تستفيقُ من حُلُمٍ .. حقاً .. إنها فرَّقَتْ مائة ألفِ درهمٍ ، ولم تبقَ شيئاً لها وخادِمها .. يا لله ،



لقد أساءها عيالُ الله وأحيائه نفسها فما عادت تُذكرُ نفسها التي بين جنبيها ..
ولكنها تقدرُ أن تصيرَ على ألم الجوع ، بل ترى في هذا من الراحة المعنوية ،
والنعيم الروحي ما يعوضها عن كل ما فقدت ، فما بالها تنسى هذه الخادم !! ..
وكانما أحسَّت من عبارة الخادم ريح العتاب واللوم ، فاستيقظت في نفسها
طبيعة الدفاع عن النفس فقالت لها على الفور في شيء من الدُعابة والظُرف :
لو ذكرتني لفعلت .. !!

فصمت الخادم لأنها علمت أنها هي الأخرى نسيت نفسها في سبيل الله .



ثوب الخليفة..!



أنصتَ الناسَ لعمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يحدث.. وكأنما على رؤوسهم
الطيرُ ، لا خوفًا أو رهبةً من الرجل العظيم ، الذي يكاد يزن الدنيا زهدًا وورعًا ، وتقوى
وإيمانًا ، فما غودهم ذلك على الرغم من شدته في الحق ، وصولته وسطوته في حدود
الدين - وإنما أنصروا إجلالًا واحترامًا للرجل الذي يصنع الأمور في بصايتها ، ويعرف لكل
شيء قدره وميزانه ، فلا ظلم ولا غلر ، ولا خيانة ولا جور ، ولا مُحاباة تطفئ على حقوق
الناس وتضيّع غلثهم جهودهم وأموالهم .. واعتقد كل إنسان أن قولة الحق سينطلق بها
لسان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عما قريب ، وأنه سيفصل الخطئة التي يريدونها لنفسه ، ويريدونها
للناس ، ويريد أن يحيل الناس عليها رضا أم سخطوا ، ما دام يؤمن بصلاح هذه الخطئة
إيمانًا يفيض بنور الله ، ويتصوّر بضاء الحق ، سامي الغاية ، رفيع الغرض .
وارتفع الصوت حازمًا قويًا يتردد صداه بين هذه الرُحاب الطاهرة التي لم تعرف
أفضل من هذا الدين ، ولا أزوع وأخبر من رجاله وأهله ، قال : « ألا أخبركم بما
استحل من مال الله تعالى ؟ » .

واستطالت الأعناق وشغصت العيون ، وطرق هذا السؤال آذان الناس في وضوح
واشراق ، لما آمن حديث المائدة بالنفس ، وما أقربه إلى كل فؤاد ، فهو أعون شيء
للمفسد ، وأقوى سلاح للمطيع ، وما أحوج الأمة الإسلامية إليه في هذا الطرف القاهر
الخرج ، وهي على أبواب الفتح ، وطرق هذه الميادين الرحبة ، التي تمتد إلى بلاد الروم
والفرس . وتفتحت القلوب قبل الأسماع ، وأرجفت الأذان ، واعتقد كل إنسان أنه لا
يُدّ سيكون له مقدار من المال يكفيه ، ويحفظ له هيبته كخليفة لرسول الله ﷺ .. يكون
له كراتب من بيت مال المسلمين نظير إدارته لشئونهم ، ورعايته أحوالهم ، وجروصه على
مصالحهم .. بيد أن حياة عمر يجب أن تنفصح قليلًا عما كان عليه رسول الله ﷺ من
الصديق والعسر ، والزهد في هذه الحياة .. يجب أن يكون له من الجاه والعظمة ،
والمجد والخدم والحشم ، ما يقع إلى حد ما موقعًا بماثل حياة كسرى ، ونعيم قيصر ..
يجب أن يكون للإمبراطورية الإسلامية الفتية القوية ، التي تقوم على هذه السواعد
الشابة ، التي تفيض إيمانًا ووفاء ، وإخلاصًا للحق ونصرته - مظهر سام ، ليس فيه بذخ



ولا إسراف ، ولكنه في حدود الاقتصاد والحشم والوقار .. ولكن صوت غمر قطع
 حل هذه الأفكار ، وأرجع الناس إلى الواقع الذي لا شك فيه .. إلى الحق الصراح ،
 حينما أجاب هو على ذلك السؤال ؟

« خلتان لثباني وقبضي ^(١) ، وما يسئني من الظهر ^(٢) لحجتي وغمرتي ، وقوتني بعد
 ذلك كفوت رجل من فريش ، لست بأرضهم ، ولا بأرضهم » .

وهمهم الناس بالتكبر والتهليل ، وتطلع بعضهم إلى بعض ، وقد عقدت الدهشة
 ألسنتهم ، وسبحوا في خصم من التورائية الروحية التي تسمو عن الماديات ، وزاوا في
 غمر الخليفة العادل الذي لا يأنه بمظاهر الحياة ، وزخارف الدنيا ، القائد الأول لهذه
 الكتاب الإسلامية التي تضرب في ظلام الحياة ، تنيرة للناس ، وتوضح لهم الطريق
 الحق ، في صرامة وعزم .

لك الله يا غمر !.. خلتان فحشب : حلة ليرد الشتاء القارس ، وأخرى لقبظ الصيف
 لأليم ؟ .. إن الرجل العادي من الناس لا تكفيه هاتان الخلتان ، فكيف بالله يكفي خليفة
 مسلمين بهاتين الخلتين ؟ ولكن عمر بن الخطاب .. يعرف قيمة المال يستغل في رفاهية
 الأمة بأسرها ، لا لرفاهية الخليفة وأسرته .. ما أبعد الناس عن طريق الخير ، وسبيل التقى
 والصلاح .. لقد وضع غمر بهذا الدعامة الأولى لحياة الرجولة الجادة في بعدها عن الرذائل
 الكماليات ، والنظر إلى الجوهر واللباب ، دون القشر والمظهر الخلاب .. !!

ثم ماذا ؟ .. ثم ما يكفيه من الإبل لحجه وعمرته .. أما الرفاهية والنعيم وما زاد عن
 الحاجة الماسة ، فلا حاجة له به ، ولا حظ له فيه ، فهو لا يجد وقتا لنفسه وحاجات
 نفسه ، وهو لا يجد فكرا يتجه به إلى مصالح الشخصية ومعة بدنه ، وإنما ملكت عليه
 مصالح المسلمين ومطالبهم كل وقته وفكره وجهده ، فهو لا يعيش هذه النفس التي بين
 جنبيه ، وإنما يعيش للناس جميعا ، للمسلمين عامة ، يأسو الجراح ، ويداوى المرضى ،
 ويواسي الحزين .. ويلقى بنفسه في الميدان مجاهدا مدافعا عن دين الإسلام دين الله ،

دين الحق ، مخاطراً بكل ما يملك من قوى وسلطان .

وهو لا يرى نفسه أرقع من أفراد المسلمين وأوساطهم . فلا حاجة به إذن لطعام خاص ، يعمل له يطبخه ونشويه ويحمّره ، ليمتيز به بين الناس ..

ولكن عمر صمت قليلاً ، وصمت الناس لصمته ، لقد كان يفكر في شيء يريد أن يقوله ، فماذا يريد يا ترى أن يقول ؟ وأخيراً انطلق الصوت في حيرة وأرباك وإشفاق :
« فوالله ما أدرى أجمل ذلك أو لا ؟ » .

سبحانك اللهم .. خليفة يلي أمر المسلمين يضع لنفسه هذا المنهاج الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الأفراد المتوسطين من المسلمين ، ولا يكاد من يرى حياته ومظهره أن يرى شيئاً غريباً أو عجبياً ، ومع هذا ، فهو في شك من هذا المنهاج !! ..

إذن فماذا يريد أن يكون ، وما الحلال إن لم يكن هذا هو أحلّ الحلال ؟ .. إن ما اتفقوا أن يأخذوه عمر من بيت مال المسلمين لا يتجاوز أن يكون نفقة لبيت متواضع جداً من بيوت المسلمين ، فلم يخرج إلى هذا الحد يا خليفة الرسول الكريم ؟ .. أشرف علينا بنورك يا عمر ، خليفة يداوى القلوب ، ويبرئ الأفتدة ، ويملأ الصدور .

وهكذا فاضت أحاسيس الناس ، وكلهم يرى عمر بن الخطاب مضيقاً على نفسه وعلى أولاده خشية أن يكون قد أخذ من بيت المال أكثر من الحاجة .. ولكن هذه المشاعر كلها مقترنة بالإعجاب والتقدير ، والإعزاز والحب ، ورفعة القدر ، وسمو المنزلة ، وما أجمل هذه الصلات بين خليفة وشعب ، وما أقوى هذه الأواصر بين حاكم ومحكوم .. وما أعجب هذا المنهاج القصير الواضح ، الذي لا يحوطه شيء من الغموض ، ولا نشوته شاذية من التفرير أو التضييل .